





هانز بليكس

## نزع سلاح العراق: الغزو بدلاً من التفتيش

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥). ٢٨٨ ص.

### صباح ياسين

معاون مدير عام مركز دراسات الوحدة العربية.

الأوضاع إلى حافة الهاوية، حيثُ سوغت الولايات المتحدة عملها العسكري الواسع ضدّ العراق عام ٢٠٠٣ بحجة إزالة أسلحة الدمار الشامل. وهي تعرف قبل غيرها أن هذه القصة قد كتبت لها أكثر من خاتمة، بل إنها قصة قد تطلب الأمر أن تكتب لها خاتمة جديدة، خاتمة تسمى وببساطة: احتلال العراق وتدمير كيانه وتمزيق وحدته وإشاعة الفوضى فيه.

وفي هذا الإطار جاء كتاب نزع سلاح العراق: الغزو بدلاً من التفتيش لمؤلفه الدكتور هانز بليكس، رئيس لجنة الأمم المتحدة للتحقيق والمراقبة والتفتيش (الأنموفيك) والذي صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية مؤخراً، ليكمل حلقات المشهد العراقي الذي كانت ذروته في احتلال بغداد عام ٢٠٠٣ وعلى الطريقة ذاتها التي دخل بها هولاكو إلى مدينة الرشيد عام ١٢٥٨، وليعاد مشهد تدمير الحضارة مرة أخرى،

ثمة حاجة - ابتداءً - إلى وضع علامات فارقة تدل على المسافة بين فضيلة الاعتراف، ونقد الواقعة، إذ إن الشعور بالمرارة والحسرة إزاء ما حدث تجاه العراق منذُ عام ١٩٩١ ولغاية احتلاله عام ٢٠٠٣ لا يسدّ الثغرة، أو يبرر حيازة موقف الصمت.

فالكارثة تتعدى حدودها الأخلاقية والجغرافية، وتستدعي إخضاع الأفكار، ثمّ الوقائع لمحاكمة عادلة، إذ إن انهيار سلطة الحقّ قد مهد لتلك الأفعال الشريرة التي بررت قتل وتدمير المدنية في بلاد الرافدين، بل في تسويغ امتياز القوة الغاشمة على قيم الحرية والعدالة.

وخطاب التوبة، إذا صحّ التعبير، الذي بدأ يعلو هنا وهناك، تجاه ما حصل ضدّ العراق خطاب متسلح في الوقت ذاته بالشجاعة ليؤسس مراجعة تاريخية وموثقة لتداعيات مسلسل الأحداث التي أوصلت

تمتطييه للوصول إلى غايات أبعد من مضمون القرارات ودلالاتها فحسب، وإنما قدم الرواية الصادقة عن رغبة الولايات المتحدة في تدمير العراق، وليس في نزع أسلحة الدمار الشامل التي يفترض أنها بحوزته.

هذا الكتاب، في الوقت الذي يعرض فيه تداعيات الأحداث منذ تولي مؤلفه المسؤولية لقيادة فرق التفتيش، يتابع الوقائع ويحللها ويعرضها كشاهد أيضاً، وهو بذلك يوثق جوانب معركة محتدمة بين طرفين، ليس العنصر الحاسم فيها هو إظهار تفوق واقتدار هذا الطرف على خصمه، بل ما تحمله نيات طرف ضد الآخر. وهي النيات التي صاغت، بالإضافة إلى عوامل أخرى، المبررات لاتخاذ القرار بغزو العراق واحتلاله، وهي قصة قابلة للتكرار أيضاً في أكثر من مكان.

والعناصر الأساسية متوفرة وقابلة للاستخدام، إذ يكفي بضعة قرارات صادرة من مجلس الأمن، ومتسمة بالتدخل والتعقيد، ووجود سلطة مهيمنة فوق سلطة مجلس الأمن، وفي المقابل تفكك وانحسار في الرأي العام الدولي. كل ذلك هو الطريق المعبدة والمفضية لصياغة واقعة جديدة مماثلة لما حدث للعراق، حتى وإن اختلف التوقيت وطبيعة مسرح الأحداث وصياغة الخاتمة.

وكشاهد على ما حدث يبدأ الدكتور بليكس برواية ما حدث بعد ظهر يوم

وكان قدر بغداد هو أن تدفع ثمن بعثها المتجدد وامتيازها الفكري والحضاري.

وهذا الكتاب هو أكثر من شهادة شخصية يقدمها مسؤول أممي كلف من قبل المنظمة الدولية، الأمم المتحدة، ليقود فريق من الموظفين التنفيذيين لتطبيق جانب من القرارات التي صدرت عن مجلس الأمن بشأن نزع سلاح العراق.

فقد قدم هانز بليكس وثيقة تاريخية بالغة الأهمية تكشف حزمة من الحقائق المذهلة عن طريقة إدارة الصراع داخل مجلس الأمن من قبل القوة الرئيسة المهيمنة، الولايات المتحدة الأمريكية، ثم أسلوب استخدام سلطة مجلس الأمن لجلد دول العالم الخارجة عن الطاعة، طاعة السياسة الأمريكية، كذلك طرائق صناعة الأزمات وتدويلها وتسويقها، ثم توظيفها لتحقيق أهداف مضمرة، هي في الغالب أهداف السياسة الأمريكية ذاتها تجاه العالم.

## لحظة الحقيقة

في ثنايا هذا الكتاب «لحظات حقيقة» قدمها هانز بليكس في صياغة لغوية محايدة، ولكنها دقيقة وهادفة للتعبير عن سلسلة من الوقائع التي عاشها ميدانياً خلال عمله في العراق.

والكاتب لا يعرض تفصيلات الصراع الذي كان محتدماً بين العراقيين من جهة، وفي الجهة الأخرى الولايات المتحدة التي وجدت من القرارات الدولية حصاناً

من خطابها المتشدد تجاه العراق وتستعجل لجان التفتيش، وتتهمها بمجاملة العراقيين. وفي الوقت ذاته تعمل في إطار مجلس الأمن على إصدار القرارات المتلاحقة التي تضيق الخناق على العراق، وتعد مشكلة الوصول إلى اتفاقات مقبولة من جميع الأطراف.

ويحدد بليكس منتصف آب/ أغسطس عام ٢٠٠٢ بداية لتصاعد المؤشرات عن إمكانية قيام عمل عسكري أمريكي - بريطاني ضد العراق. وفي شهر أيلول/سبتمبر تم نشر التقرير المثير للجدل المعروف باسم: «استراتيجية الأمن القومي»، والذي يخلص إلى مفهوم «التحرك العسكري الاستباقي». وهذه الإشارات التي تتكرر في مشاهدات المؤلف عن تلك المرحلة تشكل محوراً يستحق الدراسة والبحث المعمق، فالادعاءات الأمريكية عن وجود أسلحة الدمار الشامل أو العلاقة مع تنظيم القاعدة، جميعها تم تنفيذها من قبل مسؤولي الإدارة الأمريكية ذاتهم، والأمر الذي تصمت حوله الإدارة هو قرارها بشأن احتلال العراق والأهداف المضمرة بشأنه.

وإن كل التفاصيل المتعلقة بنزع أسلحة العراق ذات الكتلة التدميرية الشاملة، منذ قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧، وما تبعه من قرارات ذات صلة بالموضوع ما هي إلا محاولة لتعبيد الطريق نحو تمكين أمريكا من الوصول إلى العراق عبر إسقاط نظامه الوطني واحتلاله. ومن

الأحد ١٦ آذار/مارس من عام ٢٠٠٣، وليخلص ما آلت إليه السياسة الأمريكية تجاه العراق وعزمها على غزوه وإبطال كل ما أنجزته اللجنة المختصة بالتفتيش. (وعلى الرغم من أن اللجنة المختصة بالتفتيش كانت تعمل بكامل فعاليتها، وعلى الرغم من تعاطي العراق المرن مع الوضع ونيته السماح لها بالوصول إلى المواقع المبتغاة بأقصى سرعة، إلا أن الولايات المتحدة بدت مصممة على استبدال لجنة التفتيش بجيش غاز) ..

ولذلك يتوصل المؤلف إلى الإجماع بالقناعة حول تصميم الولايات المتحدة على شن الحرب وغزو العراق: «أما استنتاجي الخاص، فتمثل ويتمثل دائماً بأن العمل المسلح الذي جرى كان متوقعاً، ولكنه لم يكن قدراً محتوماً لا يمكن الرجوع عنه».

## مهمة مثيرة

وفي فصول الكتاب يروي بليكس تفاصيل عن خلفيات اختياره لرئاسة لجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتحقق والتفتيش، ويوثق جولات الحوار التي أجراها مع ممثلي الحكومة العراقية. وعلى رغم التقدم الذي أحرزته تلك المباحثات، إلا أن المطبخ الأمريكي كان يعمل بشكل عاجل لإعداد خطط الحرب والغزو. ويشير المؤلف إلى تسريب الصحافة الأمريكية لتفاصيل عن العمل العسكري المزمع في الوقت الذي تصعد فيه السياسة الأمريكية

المهمة.. تحويل تلك التهمة إلى وسيلة إدانة تبرر الغزو.

وقد أثبتت الأيام اللاحقة أن كُلاًّ المشاكل التي أثّرت، والضغط التي مورست كانت تستهدف ليس فقط الوصول إلى حافة الهاوية، بل دفع العراق إلى الهاوية، وهذا ما تحقق خلال الغزو والاحتلال والتدمير اللاحق للبنية التحتية وتمزيق العراق وتفكيكه.

## قصص مزيفة

ربما لا يتوفر عند أي باحث يسعى لتوثيق الأسابيع التي سبقت تنفيذ قرار غزو العراق من وثائق ومعلومات أكثر مما توفر لدى الدكتور بليكس. فقد كان في قلب الأحداث، سواء بعلاقته بالأمين العام للأمم المتحدة أو بالجانب العراقي، كما أنه كان موجوداً في وسط دائرة الأحداث والمناقشات ضمن مجلس الأمن. وكان عليه أن يواجه ضغوطات الولايات المتحدة وبريطانيا، وأن يقف بوجه موجة عاتية من المطالب شبه المستحيلة لتقديم إقرارات من لجنته تتوافق مع دعاوى أجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية، وبشكل خاص حين يتبنى السياسيون المعلومات غير المؤكدة المقدمة من تلك الأجهزة.

ولقد أشار بليكس إلى ذلك بصراحة حين قال: لقد أدركت خطر أن تقوم وكالات الاستخبارات بالغوص في الأمور على نحو يفوق احتمالها، فإذا أخفقت في

يعد قراءة القرار ٦٨٧ مجدداً يجد أن صياغته تمت بطريقة شديدة التعقيد والتداخل حيث تقود إلى بناء شبكة عنكبوتية معقدة تشل أي مشروع أممي أو إقليمي، أو حتى أي قرار عراقي للخروج من الشبكة، وتبقيه في حالة من عدم الاستقرار والاختلال، والتي مهدت، مضافاً إليها سنوات الحصار القاسية على الاقتصاد العراقي وعلى كُلاًّ مرافق الحياة، للوصول إلى لحظة اقتحام القوات الأمريكية لسياج مدينة صفوان جنوب أم قصر، واندفاعها للوصول إلى بغداد، ومن ثم احتلال العراق.

إن الفصول الستة الأولى من الكتاب تقدم تمهيداً لفكرة «حافة الهاوية» التي صممها الرئيس الأمريكي، ونفذ حلقاتها الأساسية في تحريض دول العالم على العراق، وبالتالي العمل على كسب الحلفاء للمشاركة معه في العمل العسكري متجاوزاً قصة التوجه نحو مجلس الأمن للحصول على قرار بشأن الحرب.

وحتى بريطانيا، الحليف الأساسي للولايات المتحدة في إطار ملف العراق، اختارت الانتظار والعمل من خلال لجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتحقق والتفتيش، ولكن يبدو أن العمل المصمم للعراق هو استمرار إحراجه دولياً، وتبقيح قرارات قيادته، وتحويل التهمة المؤقتة بشأن امتلاك أسلحة الدمار الشامل، والتي يفترض أن يتسلمها مجلس الأمن بتكليفه لجاناً متخصصة لإنجاز

ولا شك في أن ما قدمه المؤلف، كشاهد على الوقائع التي سبقت تنفيذ خطة غزو العراق، يتوافق مع ما عرضه في الوقت ذاته باعتباره مسؤولاً عن جانب من الإجراءات التنفيذية في إطار برنامج نزع أسلحة العراق. وهذه المهمة المزدوجة التي قام بها الدكتور هانز بليكس في كتابه **نزع سلاح العراق: الغزو بدلاً من التفتيش** تشكل قاعدة متينة من المعلومات والوثائق التي تمثل مرجعية ذات صدقية عالية لإعادة رسم وقائع الأحداث.

ولا بُدَّ من القول هنا إن المؤلف كان حريصاً على التعبير عن مواقفه الشخصية بين السطور إزاء ما حدث، وكان منصفاً في تعامله مع الوقائع والأحداث. وربما سيكشف المستقبل أن كلَّ الحجج والذرائع التي وظفت من أجل تبرير غزو العراق وتدميره كانت تصمم على طريقة صناعة لعب الفيديو الالكترونية، وأن إخراجها تمَّ هذه المرة في قاعتي الهيئة الدولية، الأمم المتحدة ومجلس الأمن.. القاعتان اللتان يفترض أن ترعيا السلام، وتحميا الشعوب، وتحققا العدالة.

في ختام الكتاب، وفي الفصل الذي يتحدث فيه المؤلف عن «ما بعد الحرب: أسلحة اختفاء شامل»، يقول: ولكن وجود الأسلحة المحظورة التي تمَّ تأكيد وجودها أمام العالم أجمع واعتبارها المبرر الأساسي للحرب لم يتأكد، إذ لم يتم العثور عليها بكل بساطة في أي مكان.

التقرير عن أمر معين تبين لاحقاً أنَّه يشكل خطراً أو يؤدي إلى كارثة، فإنها هي التي ستتحمل مسؤولية الخطأ.

وإذا بالغت، في المقابل، بالتقرير عنه، فهي لن تتعرض إلى الكثير من الانتقادات، لا بل يكمن الخطر في أن هذه التقارير المخبرانية لن تخضع إلى قراءة نقدية كافية من قبل صانعي القرار وواضعي السياسة، في حين أن المحكمة بحدِّ ذاتها تنعم النظر في الأدلة التي يقدمها إليها المدعي، وذلك قبل الحكم على أحدهم بالسجن.

وحدث ما توقعه الدكتور بليكس، بل أكثر من ذلك حين ورَّطت وكالة الاستخبارات المركزية وزير الخارجية كولن باول بحمل معلومات مضللة وكاذبة وليعلنها خلال خطابه في مجلس الأمن، وليرفع قنينة صغيرة مدعياً أنها تحتوي على مواد كيميائية يمتلكها العراق كافية لقتل سكان مدينة بحجم مدينة نيويورك، ثمَّ ليقدم أشرطة وصوراً مسجلة لمحادثات وتحركات لسيارات عراقية تحت دعوى أنها تقدم أدلة على مواصلة إخفاء العراقيين لمعدات ومواد محظورة.

وقد تأكد لاحقاً زيف كلِّ تلك الادعاءات، ما دفع وزير الخارجية السابق كولن باول إلى أن يصرح بعد مغادرته منصبه بأن وكالة الاستخبارات المركزية قد ضللت، وأنه يأسف لما ادعاه في مجلس الأمن، وأن ذلك وصمة عار في تاريخه الشخصي.

عن مواجهة الهيمنة الأمريكية. وقال بصوت واضح، ومن دون لبس إن نيات ومصالح سياسية دولية، غير قصة امتلاك أسلحة الدمار الشامل، هي التي كانت تقف وراء برنامج احتلال العراق. وإن الذين سعوا نحو إفشال عمل اللجنة هم الذين خططوا برنامج تداعي الأزمة وصولاً إلى نهايتها المأساوية بالغزو.

وحين يوضع هذا الكتاب القيم في المكتبة إلى جانب كتب أخرى تناولت قصة العراق، فإن فراغاً سينتظر كتباً أخرى على مؤلفيها أن ينظروا إلى شجاعة الدكتور هانز بليكس، وإلى استحقاق العدالة الذي لن يغيب طويلاً ■

ولكن لدى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية تفسيراً آخر يكشف في ثناياه عن الأهداف المضمرة ضد العراق، بعيداً عن قصص الأسلحة وغيرها، حين يقول جورج بوش في مقابلة تلفزيونية عام ٢٠٠٣: «ما من فرق حقيقي ما بين امتلاك صدام لأسلحة الدمار الشامل، وما بين نيته المحتملة لاستحواذها، ففي كلتا الحالتين إن العالم في أفضل حال من دونه، وإنه كذلك بالفعل».

وأخيراً، فقد أدلى الدكتور هانز بليكس بروايته، وكشف فيها عن الكثير من الوقائع والحقائق. وفضح عجز المؤسسة الدولية – الأمم المتحدة ومجلس الأمن –